سقط الزند لأبي العلاء المعري

بقلم
الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف

أولا — الشاعر :

فى شيخوخة الدولة العباسية حين أخذت العلة تدب فيها ، والانحلال يتطرق إليها من أطرافها فى شكل انفصال دويلات من الأطراف ، ويتغلغل فى باطنها فى شكل ثورة هنا وانتقاض هناك ، ويتمثل فى سائرها فى سقوط هيبة الخليفة فى أعين الناس حتى قال فيه المتنبى وهو يخاطب سيف الدولة :

فوا عجباً من وائل أنت سيفه
أما يتوقى شفرتى ما تقلدا ...

وفى الوقت الذى بلغت فيه الثقافة العربية الإسلامية أعلى ذراها بعد أن اتصلت بعلوم اليونان وفلسفاتهم ونقلت عن الهند وفارس وغيرهما ، ورجعت إلى مصادرها الذاتية ، فأخذت تشيع العلوم مكتوبةً ومتداولةً على الألسنة بين الناس ، فظهرت علوم الدين والفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب والشعر والكلام والفلسفة والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها مما فاضت به خزائن الكتب فى عواصم البلدان المتنافسة فيما بينها على الفضل والعلم والآداب ...

وفى الجيل الذى بدأ العربى فيه يشعر بحاجته إلى تدحيض تهمة العجمة عن نسبه ولسانه ، فظهر التشدد فى اللغة العربية لذاتها على زعم أنها عصمة العربى بين الأعاجم إذا كان الإسلام ديناً مشتركاً بين الجميع ...

وفى مدينة ليست بالقريبة ولا بالنائية ، وليست بالصغيرة ولا الكبيرة ، ولا الغنية ذات الوفر ولا الفقيرة ذات المتربة ، مدينة تقع فى واد بين مرتفعات يقال لها « معرة النعمان » نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصارى إذ اجتاز بها — فيما يقول الفيروز ابادى فى المحيط — فدفن بها ولداً فأضيفت إليه ، أو تَدَيَّرها ، أى اتخذها داراً له ، فيما يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان ....

وفى أسرة منها معروفة بالعلم والعدل والعقل الراجح وسمت الوقار ، يتولى أبناؤها قضاء المدينة وما جاورها . ذكر ياقوت فى معجم الأدباء ممن تولى القضاء فى المعرة جد شاعرنا وعمه وأباه وأخاه الأكبر أبا المجد محمد بن عبد الله المعرى ، الواحد تلو الآخر على هذا الترتيب . كما ذكر أخاه الآخر وسبعة من أبناء إخوة الشاعر وأحفادهم كلهم شعراء

تولى بعضهم القضاء وبعضهم منصب الكتابة لنور الدين زنكي . وهو شاهد على فضل الأسرة وعراقة العلم والأدب فيها ، كما أنه شاهد على درجة من اليسار فوق الفاقة ودون الثراء الفاحش المتلف ....

وفي سنة ثلثمائة وثلاث وستين للهجرة (تسعمائة وثلاث وسبعين للميلاد) ولد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري اللغوي الشاعر رهين المحبسين أو رهن السجون كما قال عن نفسه في اللزوميات :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن النبأ النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسد الخبيث

أصابه الجدري وهو في الرابعة من عمره وذهب ببصره فقضى عليه بأول محبسيه أو أول محابسه ، فانعزل مرغماً عن سائر اللدات ، فما وني الرجل في باقي حياته يضيف إليه أحباساً وسلاسل وقيودا ، كان أكبر مايميزه الاعتزاز بالنفس كشأن سائر أسرته ، فانصب اعتزازه بنفسه على العقل والعلم والأدب ، وكان محقاً في أن يرى لنفسه الحق أن يتبوأ أعلى ذروة في الدنيا . أما وقد قصرت به الحال وأصابته الدنيا في عينيه فليواجهها بالازدراء والتحدي ، وليستهن بها بإضافة قيود مختارة إلى قيده المفروض :

تأملنا الزمان فما وجدنا
إلى طيب الحياة به سبيلا
ذر الدنيا إذا لم تحظ منها
وكن فيها كثيراً أو قليلا
وأصبح واحد الرجلين : إما
مليكاً في المعاشر أو أبيلا(١)

مات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فرثاه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن
فلا جادني إلا عبوس من الدجن

وفقد بموت أبيه أحد معلميه الكبار الذين تتلمذ عليهم . ثم قضى بعد ذلك نيفاً وعشرين عاماً وليس في تاريخه شئ كبير ، حتى إذا وافى على الخامسة والثلاثين . تراءى له أن يطلب المجد والثروة في بغداد عاصمة الخلافة والعلم يومذاك . فرحل إليها في سنة ٣٩٨ هـ وظل بها حتى سنة ٤٠٠ هـ حين يئس منها ورجع خائباً سيئ الظن بها وبالناس ، موقناً بأن الفضل والأدب وحدهما لايكفيان لتسنم ذروة المجد والثروة وأن لابد إلى جانبهما من سلم دنيوي يرتقي عليه إلى الآفاق الدنيوية العليا لم يهبه الله علماً به . إلا أنه استفاد من رحلته هذه علماً وأدباً واستفاد صداقة قوم أجلاء منهم أبو حامد الاسفراييني الفقيه الشافعي ، والشريف الرضي والشريف المرتضى الشاعران العلويان ، وخازن دار العلم ، أو أمين المكتبة ، الذي فتح خزانته للمعري وفتح صدره لصداقته التي استمرت بعد عودة هذا إلى بلده فترة طويلة حتى إنه كتب إليه في سنة ٤١٤ هـ قصيدته التي مطلعها :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا
يظللهم ما ظل ينبته الخط
رجوت لهم أن يقربوا فتباعدوا
وأن لا يشطوا بالمزار فقد شطوا

وهي كرثائه لأبيه من قصائد « سقط الزند » ، وقد تضمنت هذه القصيدة أيضاً إشارة إلى آل الحكار الذين ينتمي إليهم أبو أحمد الحكاري الذي استنقذ له زورقه الذي رحل فيه إلى بغداد من أصحاب الأعشار الذين اغتصبوه حيث يقول :

وعن آل حكار جرى سمر العلا
بأكمل معنى لا انتقاص ولا غمط
فإن ينسهم أمر السفينة فضلهم
فليس بمُنسِيَّ الفراق ولا الشحط

(١) الأبيل : الراهب المعرض عن الدنيا .

وبينما هو فى طريق العودة إلى معرة النعمان وافاه نبأ موت أمه ، وكانت لها منزلة كبيرة فى نفسه فوقع النبأ فى نفسه وقوع الصاعقةور ثاها بقصيدته التى مطلعها :

سمعت نعيّهـــا صُمى صمام
وإن قال العواذل لا همـــام

ولكن صورتها ما برحت تعاوده فى المنام كما يستدل من قصيدة أخرى من قصائد سقط الزند قالها فى رثاء أمه إذ راودته فى الرؤيا ومطلعها :

خلوّ فؤادى بالمودة إخلال
وابلاء جسمى فى طلابك إبلال

تلك هى الأحداث البارزة فى حياته حتى سن الأربعين ، وهى التى يلتمس فيها وفى شخصيته وتكوينها سبب اعتزاله الناس . فلا ريب أن حبه للوقار وتجنب ما يثير السخرية به ، وأن إصابته بالجدرى والعمى ، وأن يأسه من سهولة انقياد الناس لفضله وعلمه الذى استقر بنفسه من رحلته إلى بغداد وأن موت أمه قد تضافرت جميعاً على تكوين هذه النظرة المتشائمة القائمة عنده عن الحياة والأحياء . ففقد إيمانه بالحياة وكره كل عمل فى سبيل استمرارها فأقلع عن الزواج خوف النسل ، وسخط على المرأة لأنها حبالة الحياة للعمل على اتصالها ، ولكنه لن يجارى الأنام فى هذا السبيل كما قال فى « اللزوميات » :

تواصل حبل النسل ما بين آدم
وبينى فلم توصل بلامى باء
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد
بعدوى فما أعدتنى الثؤباء

وظلت هذه الفكرة قائمة فى نفسه حتى الموت ، إذ أوصى أن يكتب على قبره بعد موته ، كأن أنجاب البنين جناية عليهم :

هذا جنـــاه أبى علىّ
وما جنيت عـــلى أحد .

وكما فقد إيمانه بالحياة ووجوب استمرارها فإنه فقد إيمانه بالناس وطرق معاشهم ، فاعتزلهم فى منزله لا يبرحه ولا يحب أحداً أن يطرق عليه بابه . ولكن أنّى له أن يمنع الناس عن زيارته والتوسل إليه كلما حزبهم أمر لا يصلح له غيره . حاصر صالح بن مرداس أحد قواد حلب مدينة المعرة وألح فى حصارها حتى ضاق الناس ، فتوسلوا للشيخ أن يكون سفيرهم لدى صالح كى يرفع عنهم الحصار ، فاستجاب لهم لرقة قلبه وعطفه عليهم ، وهى رقة ليست غريبة على أمثاله من المتشائمين القانطين الذين يضيقون بالحياة والأحياء ، لأنهم يضيقون بالناس على ما هم عليه من خسة ودناءة ، ويعطفون عليهم لجهلهم وقلة حيلتهم . فلما ذهب إلى صالح استجاب هذا له وقال : « قد وهبتها لك » . إلا أن المعرى لم تفته السخرية فى هذا الموقف فصوره فى مقطوعة من اللزوميات يقول فيها :

تغيبت فى منزلى برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما انطوى العمر إلا الأقـــل وحان لروحى فراق الجسد
بعثت سفيراً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبنّى هذا النفـــاق فكم نفّقت محنة ما كسد

وفيما عدا هذه السفارة لم يخرج من منزله نحو نصف قرن إلا أن يكون خروجاً لغرض ولفترة قصيرة مرة أو مرتين . فكان التزامه داره هذا هو ثانى محبسيه اللذين أشار إليهما النـــاس حين دعوه « رهين المحبسين »

وكما اعتزل الناس فى عقر داره ، اعتزل أكل اللحوم وما يخرج من الحيوان كالبيض واللبن وعاش نباتياً على مبدأ الرحمة بالحيوان ؛ وقيل إن الطبيب وصف له فى مرض ألم به مرة أن يأكل الفروج ، فأباه حين قدم إليه وخاطبه بقوله : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟! » وكان يقول (اللزوميات) :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون أطلقه
وجون كندة أمسى يعقد التاجا (١)
كلاهما يتوقى ، والحياة له
حبيبة ، ويروم العيش مهتاجا

وقد أثار بهذا على نفسه ثائرة الكثيرين ممن ناصبوه العداء واتهموه بالمروق من الدين والزندقة لآرائه فى الإلاهيات ، فكانوا يرون فى تحريمه على نفسه أكل اللحوم نوعا من الخروج على قواعد الشريعة التى أحلت أكل الحيوان والسمك والطيور ؛ وقد أدى هذا الخلاف أو العداء إلى الرسائل التى تبودلت بينه وبين داعى الدعاة بمصر أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران ، التى بلغت خمس رسائل ، ثلاثا من داعى الدعاة واثنتين من المعرى إليه ، إذ يقول أبو نصر فى أولاها :

« ولما رأيت ذلك ، وسمعت داعية البيت الذى يعزى إليه (أى المعرى) وهو :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتعلم أبناء الأمور الصحائح (٢)

شددت إليه راحلة العليل فى دينه وعقله إلى الصحيح الذى ينبئى أبناء الأمور الصحائح ... » وهو يشير بهذا إلى قصيدة للمعرى فى لزومياته يقول فيها :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أبناء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه
لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضَرَبَ النحل الذى بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى
أبهت لشأنى قبل شيب المسائح

واستطرد النقاش من أكل اللحوم إلى مشكلة الخير والشر وخلقهما وماجرى هذا المجرى من مسائل علم الكلام .

ولئن كان النقاش بينه وبين داعى الدعاة فى حدوده المعقولة ، لقد تطرف غير داعى الدعاة ، كابن الهبارية ، حتى طعن فى اسلامه وفى قواه العقلية وادعى أنه لما علم بأن داعى الدعاة يستدعيه إلى حلب للقتل أو الاسلام ، سم نفسه ومات .

لكم عانى الرجل من الناس فى حياته وبعد مماته ، وهو الذى اعتزلهم ومايعتقدون !

وفى ربيع الأول من سنة ٤٤٩هـ ألم به مرض دام ثلاثة أيام ، « ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم فى اليوم الثالث : اكتبوا عنى ، فتناولوا الدوى والأقلام فأملى عليهم غير الصواب . فقال القاضى أبو محمد عبدالله التنوخى : أحسن الله عزاءكم عن الشيخ فإنه ميت . فمات ثانى يوم » (٢) ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه من بينهم تلميذه أبوالحسن على بن همام الذى يقول :

---

(١) الأسك المصلم الأذنين ، والجون الأسود – كناية بهما عن البرغوث ؛ وجون كندة لقب ثور بن عفير وهو أبو حى من أحياء اليمن .

(٢) هكذا وردت رواية البيت فى رسالة داعى الدعاة كما أوردها ياقوت فى معجم الأدباء جـ٣ ص ١٧٨ .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص ٢٤٤

إن كنت لم ترق الدماء زهادة
فلقد أرقت اليوم من جفني دما

ودفن في ساحة من دور أهله بمعرة النعمان .

ثانيا ـ مؤلفاته وتصانيفه :

ترك لنا المعرى – حسبما ذكر ياقوت – نيفا وستين كتاباً ، ضاع معظمها . منها ما أعجلته المنية عن تمامه ، ومنها مختصرات وشروح ، ومنها مطولات « كالفصول والغايات » ، حيث يقصد بالغايات القوافي ، « وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ... قيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعد عودته إلى معرة النعمان ، وهو سبعة أجزاء ، وفي نسخة مقداره مائة كراسة » (١) ومنها الرسائل المطولة كرسالة الغفران التي كتبها رداً على رسالة ابن القارح ووصف فيها رحلة خيالية إلى الدار الآخرة حيث قابل من قابل من مشاهير العرب في الجنة وفي الأعراف وفي الجحيم .

وتشهد مؤلفاته بذوق رائق في تسمية كتبه ، فقد سمى شرحه واختصاره لديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي باسم « ذكر حبيب » ؛ وشرحه لديوان أبي عبادة الوليد بن عبدالله البحتري باسم « عبث الوليد » ؛ وشرحه لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي باسم « معجز احمد » . وناهيك بعنوان يدلك على خلاصة رأي صاحبه في شعر صاحب الديوان .

على أن أهم ما أثر من شعره هو ديوان « سقط الزند » وديوان « لزوم مالا يلزم » . فأما « سقط الزند » فهو موضوع رسالتنا الأصلي ، وأما « لزوم مالا يلزم » فهو الديوان الذي اشتمل على فلسفته في الحياة والأحياء وما وراء الموت والأخلاق والمرأة وما إلى هذا من المسائل الفلسفية والأخلاقية .

وقد التزم في هذا الديوان قيوداً لا يقيده بها أحد التزم مع حرف الروي حرفاً آخر لا يتعداه كما التزم الهمزة مع الحاء في قصيدته التي أسلفناها في تحريم أكل الحيوان . وألزم نفسه ثانيا بالنظم على حروف المعجم كلها ، على الرفع والنصب والخفض والوقف ولم يغفل استغراق جميع البحور والأوزان والقوافي ما أمكن : كل هذا في أغراض يصعب على الناثر أحيانا ، بله الشاعر ، أن يسوقها في نسق سهل جميل

ثالثاً ـ سقط الزند

ديوان سقط الزند جزءان يضاف إليهما جزء خاص بالدروع أطلق عليه المعرى اسم « الدرعيات » وتبلغ عدة قصائده بين قصيدة طويلة ومقطوعة صغيرة إحدى وثلاثين قصيدة ، كما تبلغ قصائد جزئي الديوان أربعاً وسبعين قصيدة ومقطوعه ، يضاف إليها سبع قصائد قصيرة أوردها جامع الديوان بعد الدرعيات معظمها في الغزل .

ولسقط الزند أهمية كبرى في تصوير نفس الشاعر وحياته وأحداثها وتطور فلسفته في الحياة التي مارسها والموت الذي واجهه في أقرب المقربين إليه وفي الأصدقاء والمعارف البعداء ؛ ففيه الشوق والحنين والفخر والمدح والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات وفيه خلاصة آمال الشاعر وآلامه ، وسعوده ونحوسه ، وأفراحه وأحزانه ، وما استقى من كل هؤلاء من العبر والآراء .

والديوان سجل شعر المعرى منذ بدأ يقول الشعر في الحادية عشرة من عمره ، ففيه قصائد قالها في شبابه كقصيدته التي رثى فيها أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وفيه قصائد قالها في سن النضج كقصائده في بغداد ورثائه لأمه وهو عائد من عاصمة بني العباس ؛ وفيه ايضاً قصائد قالها في كهولته وزمن

(١) معجم الأدباء جـ٣ ص ١٤٦ – ١٤٧ .

مشيبه كرثاء أبى حمزة الفقيه الحنفى الذى يصفه فى القصيدة بأنه رفيق الصبى ، وكقصيدته إلى خازن دار العلم التى بعثها إليه سنة ٤١٤ هـ أى بعد أن تخطى سن الخمسين . وربما كان من بين قصائد الديوان ما صدر عن الشاعر بعد هذه السن ولكننا لا نعلم ذلك علم اليقين ؛ إلا أن الذى نعلمه أن الشاعر نفسه هو الذى جمع ديوانه هـذا ، فليس هو بالذى يحتوى على آخر ما قال من شعر فى أغراض الشعر المألوفة بمعزل عن اللزوميات فى صياغتها وأغراضها .

ويتعذر علينا فى عجالة كهذه أن نتتبع قصائده أو حياته كلها فى الديوان ، فنكتفى بتصوير نفسيته التى تبدو من شعره صورة صغيرة نجتهد أن تكون واضحة بقدر الامكان ، فنتتبع أغراضه بالاستشهاد وشئ من التحليل ، كيما نرى من ذلك دخيلة نفس الشاعر وما انطوت عليه من طموح أو قناعة ؛ ولا يفوتنا أن نرى منه أيضاً فنه فى القول والتعبير ، ولزومه مالا يلتزم به غيره من الشعراء فى القريض نسجاً وغرضاً قبل أن يلتزم به فى القوافى والعروض .

الفخر :

لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد هذا الديوان ، فيما عدا الرثاء ، من الفخر . بل إن بعض رثاء الشـاعر ، ولا سيما ما رثى به بعض أهله ، يفيض بالفخر بهم كما يشهد على ذلك رثاؤه لأبيه . وهى علامة على مدى اعتزاز الرجل بنفسه وعلمه وأدبه على الرغم من مظهر التواضع الذى تدثر به طول الحياة

ولكن العـلامة الظاهرة فى فخره هى إعتزازه بالعلم والأدب ، لا بالأصل والنسب ، وإن لم يكن نسبه أقل من أن يكون موضع الفخر والمباهاة ؛ وقلما يرد فى قصائده إشارة إلى النسب الرفيع ، فإذا ورد من هذا شئ فأغلب ذلك فى مدائحه لبعض الأعلام من ذوى قرباه . بل إن عدم اكتراثه بالفخر بالأجداد قد طوع له أن يفضل الفرس على العرب وأمرائها فى إحدى قصائد سقط الزند التى قالها فى الشباب وفيها يقول :

لتذكر قضاعة أيامها ... وتَزْهَ تُزْهَ بأملاكها حمير
فعامل كسرى على قرية ... من الطف سيدها المنذر

فليس مثل هذا من يفتخر بنسبه وإن كان له فى نسبه مورد فخر ثرار ، بل فخره بنفسه وعلمه كما قال من قصيدة فى الفخر :

ورائى أمامٌ والأمامُ وراءُ
إذا أنا لم تكبرنى الكبراء
بأى لسان ذامنى متجاهلٌ
علىّ وخفق الريح فىّ ثناء

أى كما قال فى أشهر ما أثر عنه من قصائد الفخر :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندى وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيب سائل
تعد ذنوبى عند قوم كثيرة
ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل
كأنى إذا طلت الزمان وأهله
رجعت وعندى للأنام طوائل
وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
بإطفاء شمس ضوؤها متكامل
يهم الليالى دون ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وإنى وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل
ولى منطق لم يرض لى كنه منزلى
على أننى بين السماكين نازل
ينافس يومى فىّ أمسى تشرفا
وتحسد أسحارى على الأصائل

فليس فى هذا الفخر كلمة واحدة عن آبائه وأجداده ، بل فخر بنفسه التى تسعى إلى المجد فى عفة وحزم وكرم ، وبعقله الذى لا يقع فريسة للوشاة والمنافقين وبقلبه الذى لا يخيب سائلا يسأله فى حاجة ، ثم ينحى باللائمة على أعدائه الذين يعددون له الذنوب وما هى بذنوب بل علاً وفضائل ؛ ثم يقول كلمته التى تعد « برنامجه » فى الحياة ، وهى أنه يبتغى أن يفعل ماعجز عنه الأوائل وإن كان زمنه الأخير بين الأزمان .

ومن هذا القبيل كل فخر أعرب عنه فى شعره ؛ ولذا فإنه يعد صورة لنفسه تدلنا على تركيب نفسيته دلالة أوضح من دلالة المدح أو الوصف عليها . فالاعتزاز وحده ليس هو علامته المميزة ، بل يضاف إليه التحدى والعناد الذى أضاف إلى حبس العمى أحباساً بعد أحباس ؛ وهى خصيصة نفسية تظهر جداً من قوله فى قصيدة أخرى ؛

أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فعاند من تطيق له عنادا
وما نهنهت عن طلب ولكن
هى الأيام لا تعطى قيـــادا
فلا تلم الســـوابق والمطايا
إذا غرض من الأغراض حادا

*

تجنبت الأنام فلا أؤاخى
وزدت عن العدو فلا أعادى
فأى الناس أجعله صديقا
وأى الأرض أسلكه ارتيادا
ولو أن النجوم لدى مال
نفت كفاى أكثرها انتقادا
كأنى فى لسان الدهر لفظ
تضمن منه أغراضا بعادا
يكررنى ليفهمنى أناس
كما كررت معنى مستعادا

مثل هذا الفخر قد يجنح بصاحبه إلى العيب والتشهير والسخط على الناس والحياة ؛ ولكن المعرى ليس من هؤلاء العيابين الناقمين ، بل قصاراه أنه يريد الناس أكثر علما وأوفر فضلا وأحسن خلقا ، ولكنهم على ما هم عليه من الضعة والصغار والتهافت على السفساف والخسة والانحطاط أقل فى نظره من أن يستحقوا الاحترام ، وقد يستحقون العطف والرثاء . والمعرى يسبغ عليهم سابغ عطفه ، ولا يقبل وهو الذى اعتزل دنياهم أن ينفرد دونهم بجنة النعيم :

ولو أنى حبيت الخلد فرداً
لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى
سحائب ليس تنتظم البلادا

بل إنه هو الذى لا يرى الناس إلا خادما بعضهم بعضا ، ولا انتظام للحياة الا بهذه الخدمة المتبادلة بينهم راضين وكارهين ، عالمين وغافلين كما قال فى اللزوميات :

والناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض ، وإن لم يشعروا ، خدم

المدح والتهنئة

لم يتكسب أبو العلاء بشعره ، ولا طرق باب الأمراء والكبراء ، اعتزازاً بنفسه وعلواً بقدره عن الاستجداء بالشعر ، ولهذا لا نجد فى مدائحه الا ماكان من قبيل الإخوانيات ، موجهاً أغلبها الى أصدقائه ومعارفه . بل إن الكثير منها فى الحقيقة ردود على قصائد وردت إليه من أصدقائه الشعراء ، أو شكر على تحية أو هدية تلقاها منهم كقصيدته التى مطلعها

علانى فإن بيض الأمانى
فنيت والظلام ليس بفان

فإنها رد على قصبدة بعث بها إليه الشريف أبو ابراهيم موسى بن اسحق مطلعها :

غير مستحسن وصال الغوانى
بعد ستين حجة وثمان

ويتأكد هذا المعنى اذا نظرنا فى القيم التى يعلقها بممدوحيه ، ويراها فيهم جديرة بالتمجيد والتنويه ، فإنها قيم الفضل والعلم والأدب ، أى هى للسمات الشخصية فى مقابل المكسوب من تراث الآباء ، والأجداد . ولربما عرج على ذكر آباء ممدوحيه ، ولكن بعد إثبات الفضل الذى به استحق الممدوح المديح .

قال قصيدة يجيب بها بعض الشعراء على قصيدة يمدحه بها أولها :

« أرقد هنيئا فإنى دائم الأراق
ولا تشفنى ، وغيرى ساليا فشق»

كان هذا الشاعر تاميذه فيما سبق وسافر عنه فبعث إليه بالقصيدة من مقامه الجديد ، فرد عليه المعرى يقول :

لله درك من مهر جرى وجرت
عتق المذاكى فخابت صفقة العتق
إنا بعثناك تبغى القول من كثب
فجئت بالنجم مصفوداً من الأفق
وقد تفرست فيك الفهم ملتهباً
من كل وجه كنار الفرس فى السذق(١)
أيقنت أن حبال الشمس تدركنى
لما بصرت بخيط المشرق اليقق (٢)
هذا قريض عن الأملاك محتجب
فلا تذله بإكثار على السوق

(١) عيد للمجوس
(٢) الأبيض .

فإذا ذكر الآباء والأجداد فهو المتبسط فى الحديث مع الصديق ، يتبادل معه الآراء والعواطف والخلجات التى يعلم أنها قسط مشترك بينه وبينه ، ويعلم أنها موضوع مناسب للحديث فى مجالس الألفة والمودة ، ففى قصيدته إلى الشريف أبى ابراهيم العلوى ، يذكر اللهو وللسمر ثم يعرج على الكلام فى آباء صديقه الذين يحق لكل مسلم أن يفخر بهم ، بل يجب على كل مسلم أن يوادهم امتثالاً لقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » .فيقول :

وعلى الأفق من دماء الشهيدين
علىٍّ ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا
ن وفى أوليائه شفقان
تبتاً فى قميصه ليجئ الحشـ
ـر مستعديا إلى الرحمن
وجمال الأوان عقب جدود
كل جد منهم جمال أوان
يا ابن مستعرض الصفوف ببدر
ومبيد الجموع من غطفان
أحد الخمسة الذين هم الأ
غراض فى كل منطق والمعانى
والشخوص التى خلقن ضياءً
قبل خلق المريخ والميزان

ثم يستطرد فى هذا المعنى مستعيراً من أسماء الكواكب والنجوم ومصطلحات الفلك استعارات ومجازات وتشبيهات هو بين شعراء العربية أستاذها الوحيد بغير منازع .

لهذا جاءت مدائحه صوراً معنوية لأشخاص ممدوحيه ، ولم تكن صورة واحدة متكررة لرجل يستحيل وجوده لاكتمال كل كمال فيه ، وغياب كل نقص عنه ، رجل معصوم من الخطأ حتى فى الظن ، معصوم من الزلل حتى فى اللهو ، كتلك

الصور التى نراها عند كثير من المادحين المتكسبين الذين يمدحون صناعة لا شعورا

مدح أميراً عرف بالحرب والفروسية ، ومثله من يتفاءل بالطوالع والأسماء ، فذكر الشاعر تفاؤله باسمه « سعيد » ، ووصف قوة شكيمته وبأسه وخبرته بفنون الحرب والقتال فقال :

سألن فقلت مقصدنا سعيد
فكان اسم الأمير لهن فالا
مكلف خيله قنص الأعادى
وجاعل غابه الأسل الطوالا
تكاد قسيه من غير رام
تمكن فى قلوبهم النبالا
تكاد سيوفه من غير سل
تُجِدُّ إلى رقابهم انسلالا
تكاد سوابق حملته تغنى
عن الأقدار صونا وابتذالا

ولربما أخذت المبالغة على المعرى فى مدحه ، كأن يصف عروس الأمير الذى يهنئه بأنها محصنة فيقول :

تخفى ولا تظهر إلا إذا
أحرزها منزلك الأعظم
كأنها سر الإله الذى
عندك دون الناس يستكتم

ولكن المبالغة فى ذاتها ليست عيباً فى الشعر ، لأن المبالغة المعيبة هى ما يصدر عن خلل فى الحس والشعور يؤدى إلى الإحالة التى لا رصيد لها من النفس ولا من الواقع ولا من الخيال ، بل رصيدها الوهم والوسواس والربط بين ما لا رباط بينه ، كوصف ابن هانى لمشيئة المعز لدين الله الفاطمى بأنها فوق مشيئة القدر لأنه الواحد القهار .

أما المبالغة التى تصدر عن شعور صحيح باستعظام العظيم واستصغار الصغير ، فإنها من الشعر فى الصميم.

ومبالغة المعرى من نوع غير هذين ، فهى من قبيل من يستطرد بالفكرة إلى منتهاها وغاية شوطها المنطقى فيستنزفها كل ما فيها حتى ما يبقى زيادة لمستزيد أو هى مبالغة الرسام الذى يندفع فى التعظيم والتبجيل فيخلع على صورته ثوباً من الحسن والرواء ، ويحلها المحل الرفيع ، لأنه رواء فى نفسه بإزائها ، ومحل تستحقه فى نفسه وإن لم يكن لها فى الواقع المأثور ، ولكنه مع ذلك لا ينسى الشبه الحميم .

مثال ذلك ما خاطب به أبا الخطاب الشاعر وكان مفرطاً فى القصر فقال :

وهززت أعطاف الملوك بمنطق
رد المسنَّ إلى اقتبال شبابه
ألبستنى حلل القريض ووشيه
متفضلا فرفلت فى أثوابه
وظلمت شعرك إذ حبوت رياضه
رجلا سواه من الورى أولى به
فأجاب عنه مقصراً عن شأوه
إذ كان يقصر عن بلوغ ثوابه

الرثاء

والرثاء فن أبى العلاء قبل كل فن سواه ؛ فهو فى العربية شاعر الرثاء وفيلسوف الحياة بلا مراء ... نعم فيلسوف الحياة لا فيلسوف الموت : الحياة الواقفة أمام الموت موقف الشك والحيرة والخوف والاشفاق وموقف الأمل أيضاً والرجاء : أتراه نهاية كل نهاية؟ ونومة لا يقظة بعدها ؟ أم هو نقلة من دار إلى دار ؟

إنما ينقلون من دار أعما
ل إلى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الجسـ
ـم فيها والعيش مثل السهاد

ثم ما الدار بعد الدار ؟ أدار تعاسة وشقاء أم دار نعيم وهناء ؟ ... موقف الجاهل بأحق شئ منه

بالمعرفة واليقين ، والصارخ صرخة اليأس والعجز مع ابن الرومى :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي
ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب ؟

موقف الإنسان الذى يريد الحياة بعد الحياة ولا يدرى عاقبة المصير ، بل لا يدرى كيف يحدد هذا الرجاء : أيريدها حياة كالحياة أم تراه لا يرضاها على نسق الحياة وهل يرضاها على نسق سواه كما يقول العقاد :

ما وراء القبر فى قول الثقات
حالة تحمد يوماً سرها

لست بالراضى حياة كالحياة
لا ولا ترضى حياة غيرها

نعم إنه ليحمد سرها ، ولكنه لايستريح وسرها قائم لا مدخل إليه ولا مفتاح لمغاليقه .

والمعرى هو فيلسوف هذه الحياة ولسانها الذى لا يفتأ يذكر الموت ولا ينساه لمحة عين ، ولا يملك إزاءه إلا الحيرة والخوف والاشفاق . وهو فى هذا عبقرى مفطور ؛ قال خلاصة مايقال وهو بعد غلام صغير لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره يوم مات أبوه فرثاه بقوله :

على أم دفر غضبة الله إنها
لأجدر أنثى أن تخون وأن تخنى

جهلنا فلم نعلم على الحرص ماالذى
يراد بنا ، والعلم لله ذى المن

إذا غيب المرء استسر حديثه
ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى

تضل العقول الهبرزيات رشدها
ولا يسلم الرأى القوى من الأفن

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما
جنى النحل أصناف الشقاء الذى نجنى

فما رغبت فى الموت كدر . مسيرها
إلى الورد خمس ، ثم يشربن من أجن (١)

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله
وكلف نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

* * *

مجاور سكن فى ديار بعيدة
من الحى ، سقيا للديار وللسكن

طلبت يقينا من جهينة عنهم
ولن تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن تعهديني لا أزال مسائلا
فإنى لم أعط الصحيح فأستغنى

نعم لم يعط الصحيح فيستغنى ... لم يعط الصحيح الذى يستريح إليه ويطمئن به فى مسألة المسائل وسر الأسرار ، ولو أنه تيقن من « غايته قبل مذهبه » لاستراح .

ونظن أن هذه القصيدة أقوى دلالة على عبقرية المعرى — لسان الحياة الحائرة إزاء الموت وما وراءه — من درره الكبار التى تلتها ، وتوجتها قصيدته فى رثاء أبى حمزة الفقيه الحنفى ، لأن قصائد الشيخوخة قد تكون ثمرة العلم والدرس ، أو ثمرة الفلسفة المستفادة من تجاريب الحياة . أما قصيدة الصبا الباكر فلا مصدر لها إلا العبقرية المفطورة والجبلة اللدنية فى هذه الطبيعة المتأصلة فيه .

ولقد فاض سقط الزند بقصائد الرثاء ، وتعدد تعبير الشاعر وتلون بألوان مختلفة ، ولكن الفكرة دائماً هى الفكرة ، والفلسفة هى الفلسفة ، والحياة فى حيرتها إزاء الموت لا تطلبه ولا ترجوه ، ولا تنفك عنه ولا تحيد :

---

(١) الكدر القطا ، وسيرها إلى الورد خمس أى ترد الماء على مسافة خمس ليال ، والأجن الماء الآسن .

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ
ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد
تعب غير نافع واجتهاد
لا يؤدى إلى غناء اجتهاد

ولا يفوتنا فى الكلام عن الرثاء عند المعرى أن ننظر فى مراثيه ، لنرى أهى مجرد مناسبات لبسط القول فى فلسفة الموت وما وراءه ، أم هى رثاء حق للمرثى يخامر نفس الشاعر بالحزن والألم ؟

المطلع على سقط الزند يرى أن المعرى يستجيشه الميت كما يستجيشه الممات ، ففى مراثيه انفعال الحزن العميق والوجد القوى لفراق من ذهب من الأقرباء والأصدقاء . وحزنه ألوان تتعدد وتتغير مع كل ميت راحل ، وتصويره لما يفقده مع كل فقيد صورة صادقة لهذا الفقيد لا تختلط بسواه . فأبوه قاض له مشاركة فى الشعر وله سمت ووقار :

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن
فياليت شعرى هل يخف وقاره
إذا صار أحد فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى
حجا زاده من جرأة وسماحة
وبعض الحجا داع إلى البخل والجبن
أمولى القوافى ، كم أراك انقيادها
لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن
هنيئاً لك البيت الجديد موسدا
يمينك فيـه بالسعادة واليمن

وصديقه أبو إبراهيم العلوى أمير فارس ذو غزوات بالسيف والرمح ، ينتمى إلى آل البيت ، فهو ممن أوجب الله مودتهم على المؤمنين :

أعازل إن صم القنا عن نعيه
فواحسدا من بعده للقنا الصم
بكى السيف حتى أخضل الدمعُ جفنَه
على فارس يرويه من فارس الدهم
تلذ العوالى والظبا فى بنائه
لقاءَ الرزايا من فلول ومن حطم
وبالله ربى ماتقلد صارما
اه مشبه فى يوم حرب ولا سلم
فتى عشقته البابلية حقبة
فلم يشفها منه برشف ولا لثم
كأن حباب الكأس وهى حبيبة
إلى الشرب مابنفى الحباب من السم(١)
فهذا وقد كان الشريف أبوهم
أمير المعانى فارس النثر والنظم
اذا قيل نسك فالخليل بن آزر
وإن قيل فهم فالخليل أخو الفهم(٢)

والشيخ أبو حمزة الفقيه الحنفى لا نعرف له صورة إلا التى صورها له ابو العلاء فأحسن تصويرها

قصد الدهر من ابى حمزة الأ
واب مولى حجى وخدن اقتصاد
وفقيها افكاره شـدن للنعما
ن مالم يشده شعر زياد (٣)
فالعراقى بعـده للحجـازى
قليل الخلاف سـهل القياد

---

(١) الحباب بالفتح الفقاعات تعلو الكأس ، وبالضم الأفعى والشرب بالفتح الشاربون

(٢) الخليل بن آزر ابراهيم عليه السلام ، وأخو الفهم الخليل بن أحمد

(٣) النعمان اسم أبى حنيفه ، وزياد هو النابغة الذبيانى وعلاقته بالنعمان بن المنذور مشهورة

وخطيبا لو قام بين وحوش
علم الضاريات برّ النقاد[1]
راويا للحديث لم يحوج المعرو
ف من صدقه إلى الاسناد
انفق العمر ناسكا يطلب ال
علم بكشف عن اصله وانتقاد
مستقي الكف من قليب زجاج
بغروب السراع ماء مداد
ذا بنان لاتلمس الذهب الأ
حمر زهدا في العسجد المستفاد

والشاعر الجامح في شبابه قد استكان لأحداث الزمان في شيخوخته وتعلم معنى الصبر على صروف الحياة ، وإن لم تتغير فكرته عن الموت والحياة حين يرثي صديقه جعفر بن علي بن المهذب فيقول :

أحسن بالواجد من وجده
صبر يعيد النار في زنده
ومن أبي في الرزء غير الأسى
كان بكاه منتهى جهده
فليذرف الجفن على جعفر
إذ كان لم يقتح على نده
والشيء لايكثر مداحه
إلا اذا قيس إلى ضده
لولا غضى نجد وقلامه
لم يثن بالطيب على رنده
ليس الذي يُبكى على وصله
مثل الذي يبكى على صده
والطرف يرتاح إلى غمضه
وليس يرتاح إلى سهده
كان الأسى فرضاً لو أن الردى
قال لنا افدوه فلم نفده

(١) النقاد صغار الغنم

تلك هي مراثي أبي العلاء التي تظهرنا على فلسفته في موقف الانسان من الموت وما يجن وراءه من اسرار ومغيبات ، وعلى موقع المرثي المحزون عليه من نفس الشاعر ، وعلى صفة الفقيد التي لا تختلط بصفة فقيد سواه ، وعلى نفس الشاعر في أطوارها بين عرامة الشباب وهدوء المشيب .

ولقد طوع للمعري أن يكون على هذا النهج في الرثاء أنه لم يضطر إلى رثاء شخص كل آصرته به أنه يجب أن يرثي إكراماً للأمير أو الوزير الذي يمت إليه بالآصرة والقرابة ، بل رثى من رثى لآصرة شخصية تلامس منه شفاف القلب ، فحزنه حزن حقيقي صحيح ، ورثاؤه صورة لحزنه على ما فقده في الفقيد ، والموت تذكرة بموقف الحياة منه ، ومواجهة للغزه الذي لا يريد أن ينكشف لعين الانسان

ولقد شقي المعري لفقد أمه التي ماتت وهو في طريق عودته من بغداد ؛ فرثاها رثاء الذي كان يأمل أن يفيء إلى ظلها فانحسر عنه ظلها ، والذي كان يريدها مرفأ له من أعاصير الحياة ومصارع الأطماع التي رأى شاهدها في بغداد ، فانهدم المرفأ قبل أن يدخله السفين . . كارثة ولا كالكوارث ، وفقد ولا ككل فقد ، فلربما تعزى عن صديق بصديق ، ولكن ما عزاؤه عن أمه بعد أبيه ؟ هل يتضعضع للرزء وإنه لرزء وايم الله كبير ؟ ما هو بالمعري إن تضعضع ؛ بل إن له في عناده وتحديه لكوارث الزمان وخطوبه ملجأ وملاذا :

سمعت نعيّها صمى صمامِ
وإن قال العواذل لا همامِ[1]
وأمتي إلى الأجداث أم
يعز عليّ أن سارت أمامي

(١) أي هات ما عندك يا دهر من المصائب ولو قيل إني لا همة لي في احتمالها . وصمام وهمام مبنيان على الكسر

وأكبر أن يرثّيها لساني
بلفظ سالك طرق الطعام
كفاني ريها من كل ري
إلى أن كدت أحسب في النعام(۱)
سقتك الغاديات فما جهام
أطل على محلك بالجهام
وقطر كالبحار فلست أرضى
بقطر صاب من خلل الغمام

وعاودته في النوم فنكأت منه جرحاً لا يندمل فقال :

خلوّ فؤادي بالمودة إخلال
وإبلاء جسمي في طلابك إبلال
ولي حاجة عند المنية فتكها
بروحي والأهواء مذ كن أهوال
إذا مت لم أحفل أبا لشام حفرة
حوتني أم ريم برعمان منهال
دعا الله أعا ليت أني أمامها
دعيت ولو أن الهواجر آصال(۲)
مضت وكأني مرضع وقد ارتقت
بي السن حتى شكل فودي أشكال
أراني الكرى أني أصبت بناجذ
ألا إن أحلام الرقاد لضلال
أجار حتى العظمى تشبه ساهيا
بسن لها في ساحة الفم أمثال(۳)
وبين الردى والنوم قربى ونسبة
وشتان برء للنفوس وإعلال
اذا نمت لاقيت الأحبة بعد ما
طوتهم شهور في التراب وأحوال

(۱) النعام قليلي ورود الماء للشرب
(۲) أي حتى لو كان هجير الحياة رطبا كالآصال .
(۳) ينكر على الحلم أن يشبه موت أمه الجارحة العظمى التي لا نظير لها بفقد سن من ثنيته ولها في فه أمثال .

الغـــزل :

ولكن هذا الذي أعفى منه المعرى في اختلاق الرثاء والمدح لمن لاتربطه به آصرة ، قد لاقاه في الغزل والنسيب . فهو رجل رزين وقور معتز بنفسه ، وعلى بصره غشاوة العمى فهو يخشى الازراء والازدراء فلا يغشى مصارع العشاق ولايطرب طرب المجان ، ولا يعرف له في حياته ، على الأقل بعد عودته من بغداد ، أي علاقة بالنساء ومجالس الطرب والمجون وهو مع ذلك يصر على ألا يقصر مداه عن فن متاح من فنون الشعر ، فقال الشعر في الغزل ووصف الخمر فجاء غزله صورة واحدة تستطيع أن تنسبها إلى شيخ المعرة أو إلى شاعر سواه لولا ما فيها من إشارات لا تتيسر لغيره إلى العلم بالفلك والنحو والفقه والعروض والتاريخ ... وهي علوم على كل حال ، والعلوم مورد متاح قد يحصل عليه كل انسان يبتغيه . فكأن الغزل عنده مران واختبار لعلمه وقدرته على التعبير وليس وصفاً لخوالج الحب والحنين .

ونساؤه اللائي وصفهن في الحقيقة امرأة واحدة، لاتكاد تتبين لها ملامح ولاسمات ، لأن دونها أستاراً من حصانتها بين أهلها ذوي البأس ، أو لأن دونها من السيوف والرماح مالا اجتياز له بسلام ، أو لأن بعد الشقة وأينق الارتحال تبعدها عن سهولة المنال .

ولا يفهمن من هذا أنه شبب بامرأة واحدة بذاتها كما فعل جميل بثينة مثلا ، بل الذي يفهم أن المرأة في غزله صورة واحدة لا تتعدد في سمات الوجوه ولاسمات النفوس والأخلاق : ولا حتى ظروف المعاش الطارئة التي قد تتغير بين حين وحين.

وعاطفته نحوهن عاطفة واحدة مطردة مع الشباب والشيخوخة ، شوق إلى الوصال يمنعه مانع معتسف من الأهل والآل أو من السيوف والأهوال أو من

الأسحار والآصال ، ويعلم الله ان مانعه الأكبر هو ادارة الشيخ الزاهد لا امتناع الرشأ الحسناء .

فالغزل عنده فى الحقيقة حب « موقوف التنفيذ » ولذلك كان يراوده كثيرا فى الأحلام كما يشهد بذلك الكثير من شعره . ولقد يغنى فى هذا الباب شاهد واحد أو شاهدان ، تبدو منهما هذه الخصائص التى اضطر اليها شاعر يرى وجوب القول فى النسيب ، وما هو من النسيب ، فى مضماره الأصيل :

قال من قصيدة قصرها على الغزل والفخر :

إن كنت مدعيا مودة زينب
فاسكب دموعك يا غمام ونسكب
ضمن الغمائم لو علمت غمامه
سوداء ، هدباها نظير الهيدب
ياسعد أخبية الذين تحملوا
لما ركبت دعيت سعد المركب
غادرتنى كبنات نعش ثابتا
وجعلت قلبى مثل قلب العقرب (١)
بالجفن بارزت القلوب وإنما
بالنصل يبرز كل شهم محرب
كم قبله لك فى الضمائر لم أخف
فيها الحساب لأنها لم تكتب
ومتى خلوت بها من اجلك لم أرع
فيها بطلعة عازل من مرقب
ورسول أحلام إلياك بعثته
فأتى على يأس بنجح المطالب

وقال فى مقدمة قصيدة فى المدح بدأها بالنسيب على سنة الشعراء الأقدمين :

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر
لعل بالجزع اعوانا على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم
فاسق المواطر حيا من بنى مطر
ويا أسيرة حجليها أرى سفها
حمل الحلى لمن اعيا عن النظر
ماسرت إلا وطيف منك يصحبنى
سرى أمامى و تأويبا على أثرى
لوحط رحلى فوق النجم رافعه
وجدت ثم خيالا منك منتظرى
يود أن ظلام الليل دام له
وزيد فيه سواد القلب والبصر
لو اختصرتم من الاحسان زرتكم
والعذب يهجر للافراط فى الخصر

فهن نساء لاصفة لهن ولاشخصية ، بل طبعة متكررة باهتة المعالم والملامح والقسمات . والعاطفة نحوهن لا تتغير بتغير أطوار العمر بين العرامة والهدوء وليس فى نسيب المعرى – باختصار – صدق العاطفة بل فيه براعة الصنعة وسعة العلم والقدرة على التصرف فى المعانى والألفاظ .

الوصف

وما يقال فى النسيب والغزل يقال فى الوصف بوجه عام : ذلك أن رجلا حبسه الزمان وأفقده بصره ، وحبس نفسه فى داره فوق حبس عينيه ، وصام عن شهوات الحس من خمر ونساء ، وعزف عن طعـام شهى وسماع عبقرى ، لا يمكن أن يجد الموضوع ولا الآلة للوصف التصويرى الصادق الذى يتوفر فيه كل عضو من أعضاء الحس ما يشبعه من المنظر الموصوف .

قصاراه إذن أن يتخيل بقدر ما يسعفه الخيال ، وأن يصف عن علم إن فاته أن يصف عن حس وشهود

(١) بنات نعش والعقرب من مصطلحات الفلك

وهذا هو الذى يبدو لنا من أوصاف المعرى لليل والكواكب بنوع خاص ، تلك الصفات التى أطنب فيها غاية الأطنــاب ، والتى تدل على علم واسع بالفلك غير عجيب ولا مستغرب من رجل يهتم بالموت والحياة واستطلاع الطوالع والمغيبات ، وتدل على معرفة وافرة باللغة تطوع له تصريف الأساليب كما يشاء ، وتدل على اطلاع لا تغيب عنه شاردة ولا واردة من تاريخ العرب وتراثهم ومن مواضع الاتفاق والاختلاف فى علومهم بين شتى مدارسهم . من ذلك قوله يصف الليل :

ستعجب من تغشمرها ليال
تبارينــا كواكبها سهادا
كأن فجاجها فقدت حبيباً
فصيرت الظلام لها حداداً
وقد كتب الضريب بها سطورا
فخلت الأرض لابسة بجادا (١)
كان الزبرقان بهــا أسير
تجنب لا يفك ولا يفادى (٢)

ومنه قوله فى الليل أيضاً :

ليلتى هذه عروس من الز
نج عليهــا قلائد من جمان
هرب النوم عن عيونى فيها
هرب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتنقـــــان
قال صحبى فى لجتيه من الحند
س والبيد إذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجما
ن فى حومة الدجى غرقان

(١) الضريب الندى يتحول ثلجاً والبجاد الكساء المخطط
(٢) الزبرقان القمر

وسهيل كوجنة الحب فى اللـ
ون وقلب المحب فى الخفقان
مستبد كأنه الفـــــارس المعـ
لم يبدو معارض الفرسان
يسرع اللمح فى إحمرار كما تسـ
رع فى اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادى
فبكت رحمة له الشعريان
قدماه وراءه وهو فى العجـ
ز كسـاع ليست له قدمان
ثم شاب الدجى وخاف من الهـ
جر فغطى المشيب بالزعفران
ونضا فجره على نسره الـــوا
قع سيفـا فهمَّ بالطيران

صورة مفصلة للكواكب والنجوم والليل فى أوله وفى آخره ، إذا اختزلت منها صناعة اللفظ المحور فى التشبيه والتورية لم يبق لك منها إلا ما تجده فى كتب الفلك من وصف « سهيل » بالاحمرار واللمعان ، ووصف الدجى بالسواد ووصف الفجر باللون الأشهب كلون الزعفران يغطى المشيب الأبيض وما جرى مجرى هذه الأوصاف .

ومنه وصفه للفرس إذ يقول :

وأعظم حادث فرس كريم
يكون مليكه رجلا شحيحاً
تريك له سماء فوق أرض
فروجُ قوائم يعددن لوحاً (١)
أصيل الجد سابقه ، تراه
على الأين المكرر مستريحا

(١) السماء أعلى الفرس ، والأرض أسفلها ، واللوح الذى يبدو بين فرجة القوائم هو الهواء .

كأن غبوقه من فرط ري
أباه جسمه فغدا مسيحاً (١)
كأن الركض أبدى المحض منه
فمج لبـــانه لبناً صريحاً

ومنه وصفه للسرى فى البيداء :

بتنا ، فريق فى سروج ضوامر
منا وآخر فى رحال عرامس (٢)
سلب الكرى ألباب من ذاق الكرى
منا وطار ببعض لب الناعس
فالمرء يلثم سيفــه وقرابه
ويظنه وجنات أغيد مائس
حيث الشمال عن العنان ضعيفة
والسوط يسقط من يمين الفارس
لا تحسبي ، إبلى ، سهيلا طالعاً
بالشام ، فالمرئى شعلة قابس (٣)

ولسنا نظن أن أبا العلاء قد تعرض لسفر الليل على هذه الصفة ، ولا قلبت كفاه سيفا وعنانا ، ولا شفتاه قبلتا خد « أغيد مائس » ؛ بل هو وصف على السماع يقصد به اثبات المقدرة والكفاءة على تصريف المعانى والألفاظ ويرحض به عن نفسه مظنة العجز والقصور عما كان من فنون الأوائل وأغراض شعرهم ، وهو الذى يريد أن يأتى بما لم يأت به الأوائل وإن تأخر به الزمان .

الدرعيات

أفرد المعرى فى سقط الزند بابا فى وصف الدروع أطلق عليه اسم « الدرعيات » تقرؤه كله فلا تحصل منه على وصف للدروع إلا أنها رقيقة النسيج لا تبهظ صاحبها وهو مدرع بها أو وهو طاوٍ لها فى حمائله ، قوية السرد ترد عادية كل سلاح ، عزيزة على نفس صاحبها لأنها وقاية له ؛ والوقاية خير وأجدى من كل صولة بسلاح . فهو إذن باب لا يعدو عنده أن يكون فرصة أخرى يظهر فيها تحكمه فى اللغــة وغريبها ، ومجالا يبدى فيه علمه بعادات العرب وأخبارهم ووقائعهم مصداقاً لقوله فى الفخر بعلمه فى اللزوميات .

ما مر فى هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندى من أخبارهم طرف

إلا أن للباب فضيلة غير الوصف المعهود للدروع والأسلحة التى تقاومها ، وهى وصف المواقف النفسية لأصحاب الدروع ، أجرى بعضها على لسان هؤلاء الأصحاب ، وأجرى بعضها الآخر على لسان من يتخيله من الناس أو من الدروع فى موقف يختلقه ، منها قصيدة على لسان رجل كبر وأسن وترك لبس الدروع ، ومنها على لسان رجل رهن درعه فدفع عنها ومنها قصيدة على درع يخاطب سيفا ومنها على لسان رجل يسأل أمه عن درع أبيه ، ومنها على لسان رجل نزل بامرأة فساومته درعا ، ومنها قصيدة يذكر فيها نساء احتجن إلى لبس الدروع ، ولعل أعجبها وأشدها مخالفة للمألوف من عادات الناس تلك القصيدة التى أجراها على لسان أم عجوز تحض ابنها على اقتناء الدروع وتنفره من الزواج ، جمع فيها قصة شعرية نورد أكثرها هنا لطرافتها ولما فيها من تحليل نفسى بديع . يقول على لسان الأم تخاطب ابنها :

عليــك السابغــات فإنهنه
يدافعن الصوارم والأســنة
ومن شهد الوغى وعليه درع
تلقــاها بنفس مطمئنــــة
وحبات القلوب يكن حبا
إذا دارت رحاها المرجحنة

* * *

(١) الغبوق شراب الليل ؛ والمسيح العرق .
(٢) العرامس النوق الصلبة .
(٣) سهيل لا يرى فى الشام ويرى فى اليمن ، فكأن إبله حسبت جذوة النار سهيلا فحنت إلى موطنها الأصلى باليمن ، وما هى إلا جذوة قبسها قابس .

فحين إلى المكارم والمعـــالى
ولا تثقل مطاك بعبء حنـة (١)
فإنى قد كبرت وما كعاب
ملائمـــة عجـــوزاً مقسئنة
ترى تنومها وترى ثغامى
فتهـــزأ منهبلـــة مسنة (٢)
فإن يبيض بالحدثان فودى
فقد أغدو بغود كالأجنة
إذا ما السارحات نظرن فيه
عجبن لما سرحن وما دهنه
إذا وقعت مداريها عليه
سترن بجنح ليل أو دفنه
فلا تطع الدوالف مرسلات
فكم أوقعن فى أرض مجنه (٣)
يقلن فلانة ابنة خير قوم
شفاء للعيون إذا شفنه
لها خدم وأقرطة ووشح
وأسورة ثقائل إن وزنه
فبادر أخذها الخطاب واحذر
فواتك انها علق المضنة
رزان الحلم ، لورزئت سهيلا
أو الجوزاء مانهضت مرنة (٤)
رجاح لاتحدث جارتيها
بنجوى من حديثك مستكنه
كأن رضابها مسك شنين
على راح تخالط ماء شنه

(١) مطاك أى ظهرك ؛ والحنة الزوجة .
(٢) التنوم نبات قاتم الخضرة كناية عن الشعر الأسود والثغام نبات شديد البياض كناية عن المشيب .
(٣) الدوالف الخاطبات والأرض المجنة كثيرة الجن .
(٤) سهيل والجوزاء من كواكب النحس ، وقامت مرنة أى صارخة .

فلا تستكثر الهجات فيها
فإعراس بتلك دخول جنة
إذا قبلتها قابلت منها
أريج النور فى زهر مغنه
تغنت من غنى مال وصبر
وأما بالقريض فلم تغنه
وليست بالمعنة فى جدال
وإن جدلت كما جدل الأعنه
أولئك ماأتين بتصح خل
ولا دن المليك ولا يدنه
وقد أملن أن يأخذن يوما
رشاك ولم يقمن بما ضمنه
ولو طاوعتهن لجئت يوما
بأخت الغول والنصف الصفنه (١)
إذا حاورنها نبذت حوارى
وإلا تلف لى ذنبا نجنه (٢)

وبعد ، أفيعاب على المعرى أنه لم يصف ما شاهده بعينه ووصف ما تخيله ببصيرته ؟

إن أستاذية الوصف فى هذه القصيدة لتعجز المتفرغين لهذا اللون من وصف مشاعر النساء ودخائل نفوسهن على اختلاف السن والموقف . فهذه العجوز تحسن لابنها اقتناء الدروع لااعتقادا ولكن غيرة من فتاة كعاب فتية لن تلائمها ، بل قد تعيرها بشعرها الأبيض وتتباهى عليها بسواد شعرها الفاحم ، ثم لاتلبث أن تنسى نفسها فتتذكر أياما لها سالفت كانت فيها ذات شعر كجنح الليل يستر الماشطات ويدفنهن . ثم هذا الإعجاز فى وصف حيل الخاطبات اللائى يغرين الفتى بأصل الفتاة ومالها وخدمها وثروة حليها ورجاحتها ورزانتها وجمال وجهها وثناياها ، ثم يستحثثنه إلى

(١) النصف المرأة فى منتصف العمر ؛ والصفنة المترهلة .
(٢) تجنه أى تتجناه .

المبادرة بخطوبتها حتى لايسبقه إليها سابق من خطابها الكثيرين

كل هذا على لسان حماة المستقبل التى تكره زوجة ابنها ككائن مجرد قبل أن تعرف من تكون بالتحديد ، فتلقى إلى ابنها بالنصيحة أن هؤلاء الخاطبات كاذبات يأتينك بغير ما وعدن ولا ضمان لوعدهن ، ثم يبدو من حيث لا تريد سبب الكره على لسانها سجية تلقائية فيها وهو أن الزوجة لن تألف حماتها ولن ترضخ لتوجيهاتها ولن تضع نفسها فى خدمتها ، فتفسر الحماة هذا السلوك منها بأنه تسقط للذنب إن وجد واختلاق وتجنٍّ عليها إن عز عليها وجود الصحيح .

أى قصاص لا يحسد المعرى على هذا الوصف المبدع المعجز لأطوار النفوس ؟... وللمعرى بعد هذا فضل الشاعر على الناثر المسترسل فى الحديث . بل فضل الشاعر الذى يتعمد إيراد الغريب من ألفاظ اللغة ليبارى فيه الأقدمين وليثبت أنه آت بما لم يستطعه الأوائل ، وإنه فى هذا لعلى حق مبين :

* * *

هذا هو المعرى منظوراً إليه من ثقب صغير مهم هو ديوان « سقط الزند » .

رجل خلق بعقل الفيلسوف ونفس الشاعر فكان شاعراً فيلسوفاً يتغلب فيه الشعر على التفكير فيميزه عن الفيلسوف الشاعر كأفلاطون .

وجد نفسه فى عصر من عصور الفتنة والانقلاب والشك الجائح فى كل ما تواضع الناس عليه فصادف من نفسه كل ملكة فيها .

بحث فى العلوم والأديان والفلسفات والتاريخ لعله واصل منها إلى يقين فأعوزه اليقين ؛ لأن شكه لا يرجع إلى نقص فى العلوم بل إلى سبب دخيل فى النفوس التى لا تجد الاطمئنان إلى شئ ، وحولها كل شئ متغير بين آن وآن .

آثر العزلة عن الناس والأحداث وهيهات إن هو اعتزل الناس أن يعتزلوه ويتركوه بعيداً عن مضطرب الأحداث لا يصيبه منها ولا حتى الرذاذ .

وأصابه الزمن بالعمى فى بصره ولكنه أفاء عليه بالعروض الوافى فى جلاء البصيرة ونفاذ الرأى ، إذ امتنع عليه جلاء الرؤية ، فكان نصيبه هو القيم النادر بين الناس وكان رزؤه فى البسيط الذى لا يتميز به أحد بين الطغام والعوام

وبصير الأقوام مثلى أعمى
فهلموا فى حندس نتصادم